الاتجاه القومى للتعليم

عمل واجب بعد الاستقلال

بقلم الأستاذ سيد قطب

فى العهد الذى كانت مصر فيه خاضعة لسلطة الاحتلال التركى أو الانجليزى لم تكن للتعليم أهداف قومية . وكان هذا طبيعيا معقولا .

ولكن هذا العهد قد انقضى بعد تغير موقف مصر السياسى .

فماذا صنعنا نحن لنلائم بين اتجاه التعليم فى المدارس واتجاه البلاد فى طريقها الجديد ؟

لم نصنع أكثر من ترقيع البرامج والنظم، وزيادة بعض مواد الثقافة، وتعديل بعض طرائق الدراسة، بينما بقى الأساس الموضوع من قبل دون تعديل أو بتعديل خفيف يمس العرض الظاهر دون الجوهر الأصيل .

هذا الترقيع فى النظم والبرامج جاء مخلا وضارا ، فلم يبق على النظام القديم الذى كان منطقيا مع عصره ، منطقيا مع أغراضه ، مؤديا إلى أهدافه ، ولم يستحدث نظاما جديدا يكون منطقيا مع العصر الجديد مؤديا إلى أهدافه الجديدة .

كثر التغيير والتبديل ! وكثر رسوب التلاميذ وشكواهم، وكثر المتعطلون من المتعلمين، وكاد النظام الاجتماعى يضطرب بسبب هذا التعطل ، واضطرب النظام الاقتصادى فعلا، ولم تربح القومية المصرية شيئا من وراء النظام المرقع البديل .

ولست هنا فى مقام بيان عيوب التعليم عامة وأثرها فى الأوضاع التى نشكو منها الآن وعلى من يريد الاستزادة فى هذا الموضوع أن يقرأ تقرير وزير المعارف عن عيوب التعليم الثانوى ، وكتاب الدكتور حافظ عفيفى باشا " على هامش السياسة " وكتاب الدكتور

طه حسين بك المستشار الفنى لوزارة المعارف "مستقبل الثقافة" وكتاب مريت بطرس بك "سياسة الغد" وكتاب الدكتور على عبد الواحد وافى "البطالة" وكتاب الأستاذ عبد الحميد فهمى مطر "التعليم والمتعطلون فى مصر" وسواها من الكتب والتقريرات والمقالات .

إنما أريد فقط أن أتحدث عن نقص الاتجاه القومى فى المدرسة المصرية وفى وسائل الثقافة المصرية من صحافة و إذاعة ومسرح وسينما .

وحين يكون على رأس وزارة المعارف نجيب الهلالى باشا صاحب التقرير المعروف ، وعلى يمينه مستشارا فنيا ، الدكتور طه حسين بك صاحب الكتاب المعروف ، نتنظر أن يصنع شيء فى هذا الشأن غير ما صنع من قبل ، وأن يوضع للتعليم أساس جديد كامل .

وقد نشر المستشار الفنى لوزارة المعارف منذ سنوات كتاب "مستقبل الثقافة" ، ونحن نرتضيه دستورا للثقافة يجب تنفيذه فى عهد الاستقلال .

وهذا الكتاب مرصود كله للدستور الثقافى فى جميع مراحله ، ولكن به صفحات كاملة من الشعور القومى وضرورة بثه فى نفوس الناشئة ، ضمانا للاستقلال ، وللديمقراطية التى هى الثمرة الداخلية للاستقلال ، فلنقتطف بعض الفقرات من هذه الصفحات .

يقول فى صفحتى ٧٧ و ٧٨ من الجزء الأول : "نحن إذا فكرنا قليلا انتهينا إلى أن من أوجب واجبات الدولة المصرية فى عشرات الأعوام المقبلة — أن تحوط الاستقلال الخارجى ، وأن تقر النظام الديمقراطى فى داخل الحدود المصرية . ومهما يكن جهد الأفراد فى حياطة الاستقلال وتثبيت الديمقراطية ؛ فان هذا الجهد ليس شيئا بالقياس الى الجهد الذى يجب أن تبذله الدولة ؛ لأن الدولة أقدر على ذلك وأنفذ اليه وهى لم تقم بعد إلا له .

"و إذا كان أهم أعمال الدولة أن تحوط الاستقلال الخارجى ؛ فإن الوسائل الى حياطة هذا الاستقلال هى من أول واجبات الدولة ومن أهم أعمالها . وأى وسيلة الى حياطة

الاستقلال تعدل هذه الوسيلة الأساسية. هذه الوسيلة الأولى والأخيرة؛ وهى تنشئ الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس فى حياطته والذياد عنه ؟

" وإذا كان من أول واجبات الدولة أن تحمى بعض المصريين من بعض؛ وأن تكفى بعضهم شر بعض ، وأن تكف بأس بعضهم عن بعض ؛ وأن تقر فيها العدل والأمن ؛ وتحقق لهم المساواة وتكفل لهم الحرية . إذا كان ذلك كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها ؛ فان الوسيلة الى هذا كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها . وأى وسيلة إلى تثبيت الديمقراطية تعدل هذه الوسيلة الأساسية؟ هذه الوسيلة الأولى والأخيرة وهى تنشىء الطفل المصرى والفتى المصرى على أن يحب مواطنيه، ويؤثرهم بالخير ، ويضحى بنفسه فى سبيل حمايتهم من الشر وحياطتهم من الظلم ، ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق ؟ "

فهل مما يكفل تنشئة الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس فى حياطته والذياد عنه ، أن يتضمن برنامج المدارس الابتدائية فى مادة التاريخ موضوعا عن : " مزايا الحملة الفرنسية على مصر " ومثله من الموضوعات .

جائز أن تكون هذه الموضوعات ، مما يدرس فى عهود خاصة ، لتؤدى الى هدف مقصود ، فما الذى يجيز لها أن تدرس فى عهد الاستقلال للتلاميذ الصغار ؟

وجائز أن تكون هذه حقائق تاريخية، أو أن تكون ادعاءات مقصودة للدعاية، ولكنها فى كلتا الحالتين لا يجوز أن تدرسها ناشئة البلاد فى صورتها هذه ، ويجب أن تؤجل إلى مرحلة الجامعة عند التحقيق التاريخى . أما عهد الطفولة وعهد الشباب ، فيجب أن ينقضيا فى تلقين الأطفال والشبان حقائق أخرى تصور الأمجاد المصرية ، وتملأ نفوسهم بالعزة القومية .

وليس ما ذكرت إلا مثلا من أمثلة كثيرة فى مادة التاريخ وحدها — وهى أهم المواد التى يعتمد عليها فى " تنشىء الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس فى حياطته والذياد عنه" .

فهل شئ من هذا كله يساعد على تنشيء الطفل المصرى والفتى المصرى كما ينبغى ؟ !

وليس شيء فى برنامج الدراسة الحالى مما يبث الشعور القومى ويميه فى نفوس الناشئة فالتاريخ المصرى ضائع بين تواريخ الأمم الأخرى ، ولا يشعر الطفل والفتى أنه تاريخ وطنى تبذل له عناية خاصة ويوجه توجيها خاصا ، والجغرافية المصرية سريعة خاطفة مدغومة فى الجغرافية العالمية ، لا يحس معها الطفل والفتى أنها جغرافية بلاده وأنها يجب أن تتمتع بانتباه خاص ، والمجتمع المصرى الذى يطلب مؤلف " مستقبل الثقافة " أن ينشأ الطفل المصرى والفتى المصرى على حبه والتضحية فى سبيله ؛ لا تأتى سيرته إطلاقا فى برامج الدراسة ، ولا ينشأ الطفل والفتى على الشعور بوجوده مجرد الشعور !.

* * *

يجب إذن أن يقام التعليم وأن تقام التربية على أساس جديد ، ونضرب هنا بعض الأمثال فى بعض مواد الدراسة ، وبعض وسائل التربية .

ففى التاريخ نرى أن الكتب التى بأيدى تلاميذ المدارس اليوم عن مصر يجب أن تنزع وتلقى بعيدا عن متناولهم حتى لا تشوه لهم تاريخ بلادهم ولا تجعله جامدا ميتا لا روح فيه ، وحتى لا تخلق بينه وبينهم جفوة توصد نفوسهم دونه كما هو حادث الآن ، إذ أن مئات الأسماء للملوك والحوادث الحربية وللأمكنة وللتواريخ الرقمية التى حدثت فيها تصد الناشئ عن هذا التاريخ وتكرهه فيه لأنه واجب ثقيل لا حياة فيه .

يجب إذن أن تختفى هذه الكتب المؤذية ، واختفاؤها هو واجب وطنى قبل أن يكون واجبا علميا .

فإذا منعت دراسة هذه الكتب ، فيجب أن تحل محلها كتب أخرى متدرجة حسب مراحل الدراسة ، ففى المدارس الابتدائية تستبدل بها كتب قصصية عن حياة المصريين تصور هذه الحياة تصويرا صحيحا ، وتشتمل على عاداتهم وتقاليدهم وبعض عقائدهم وأناشيدهم ، حتى تتجسم فى هذه المخيلات الصغيرة صورة شاخصة لمصر لا أثر فيها للسرد الممل ولا للتواريخ الرقمية للحوادث إلا ما تيسر فى ثنايا القصص المحبوب .

وفى المدارس الثانوية تدرس سير بعض الأبطال القدماء والمحدثين بحيث تشمل هذه السير تاريخا للحوادث فى عصرهم ووصفا لحالة الشعب وبسطا لعاداته وتقاليده وديانته وكثير من أناشيده فى مواسمه وأعياده ، وتدرس السير الشخصية من ألذ وأمتع الدراسات ، وهو فرصة لتصوير حياة الشعوب وحوادثها فى خلال حياة الشخصية المدرسية ، وهو فى مرحلة التعليم الثانوى بالذات — مرحلة المراهقة — أنسب طرق الدراسة وأبعث ما يكون لحياتهم الخصب وعواطفهم المشبوبة واستعدادهم للتشبه بالأبطال ، ولاسيما حين يكون هؤلاء الأبطال من دمهم ومن عنصرهم .

وفى التاريخ المصرى كثير من الأساطير بخول هذه الأساطير وحول الحوادث التاريخية وحول الأشخاص الحقيقيين والوهميين ينبغى أن تحاك القصص والروايات والأفلام ، ويوضع ذلك كله فى متناول التلاميذ والطلاب حسب أعمارهم وثقافتهم للقراءة والمشاهدة والتمثيل .

وهذه الآثار والتماثيل والنقوش يجب عقد الصلة بينها وبين نفوس التلاميذ والطلاب بتكرار زيادتها وشرحها شرحا وافيا ، وحينئذ تنقلب هذه المخلفات الجامدة حية نابضة تحدثهم عن نفسها وتقص عليهم تاريخها : وتثير الروابط الكامنة بينهم وبينها ، فتعيش فى أوهامهم عيشة الأحياء المبعوثين .

فاذا تجاوزنا مرحلة العهود الفرعونية فيجب أن تتجه الدراسة إلى وضوح الشخصية المصرية حتى فى عهود الغزو والاحتلال ؛ وإلى غلبة هذه الشخصية على شخصية الفاتحين ، وإلى أثر الروح المصرية والعقائد المصرية والأساطير المصرية فى كل ما دخلها من فلسفات وثقافات .

وبهذا يصبح التاريخ المصرى متسلسلا ، وتصبح مصر شخصية حية فى وهم كل تلميذ ويحس انه اليوم ليس غريبا عن تحتمس ورمسيس ، ولا غريبا عن الأقوام الذين عاشوا فوق هذه الأرض الخالدة منذ أقدم عصور التاريخ .

وفى المكتبة العربية اليوم كتاب يؤدى إلى هذه الغاية أحسن أداء وهو كتاب المرحوم عبد القادر حمزه باشا " على هامش التاريخ المصرى القديم " .

وفى الجغرافية : يجب أن تدرس الرقعة المصرية والبيئة المصرية بتوسع : طبيعتها وجوها وحيوانها ونباتها وتربتها وكل شيء فيها ، وأن يربط بينها وبين التاريخ القديم والحديث وأن يزور التلاميذ أكثر مايمكن من الأماكن والجهات التى يرد ذكرها فى أثناء الدراسة. وينبغى أن تكون الرحلات والسياحات جزءا أساسيا من البرنامج . ويجب أن يكون للايحاء قيمته فى أثناء دراسة الرقعة المصرية وما يتصل بها من الشرق والغرب مما أثر فيها وتأثر بها من البلاد ، وأن ينصب هذا الإيحاء على تمجيد تلك الرقعة وذكرها فى شيء من التقديس والتبجيل كأنها بلاد مقدسة فى القلب واللسان . ويجب ألا يوجد ذلك الفاصل بين دروس التاريخ ودروس الجغرافية ، وأن يختلطا فى جميع المراحل بقدر الإمكان .

وفى اللغة والأدب : يجب أن تعطى الفرصة كاملة فى مرحلة التعليم الابتدائى للغة القومية — وبهذا " يشير " مؤلف " مستقبل الثقافة " وهو اليوم " مستشار " الوزارة .

ولعل من الحق أن نقول : إن عقبة ستعترض المستشار الفنى فى الطريق. هذه العقبة هى أن قصر المرحلة الابتدائية على اللغة القومية ، سيوفر عدداً من مدرسى اللغة الانجليزية فى هذه المدارس ، وهذه عقبة تعد فى وزارة المعارف كأداء لاسبيل إلى اجتيازها ، وسيدافع عنها كثيرون لاعلى هذه الصورة ولكن بمعاذير أخرى ، فلعل الله أن يوفقه إلى استخدام هؤلاء المدرسين الذين سيزيدون على الحاجة فى مواد البرنامج الأخرى ، فتحل هذه المشكلة ، ويفسح للغة القومية من الوقت والجهد مايؤصلها فى ثقافة التلاميذ .

أما الدراسات الأدبية فيجب أن تعنى بالأدب المصرى قديمه وحديثه ، وأن تبرز فيه الخصائص المصرية التى خلعتها البيئة المصرية والروح المصرية على اللغة العربية وآدابها . ويجب أن يشعر الطالب أن بلاده لا تكتفى بتلقى الآداب والثقافات والفلسفات ، إنما هى تمصرها ، وتخلع عليها ثوبها ، وتؤثر فى كيانها واتجاهها ، وأن يبرز ذلك كله بروزا كافيا .

وفى الحساب : يجب أن تصاغ رءوس المسائل على المبادلات المصرية الحقيقية ، وأن تكون ذات قيمة عملية فى تعريف التلاميذ طرق الحساب التطبيقية فى السوق المصرية ؛ وأن تبعد عن الفروض المستحيلة كمسائل الأحواض والحنفيات والبالوعات : الحنفيات التى تصب فى الأحواض بمعدل كذا فى الساعة والبالوعات التى تفرغ هذه الأحواض بمعدل كذا فى الساعة فإذا فتحت الحنفيات والبالوعات فبعد كم تمتلئ . . . الخ !

وفى التربية الوطنية والاجتماعية : يجب أن يعلم التلاميذ هذا الذى يقوله الدكتور طه حسين بك من أن الطفل المصرى والفتى المصرى يجب أن " يحب مواطنيه و يؤثرهم بالخير و يضحى بنفسه فى سبيل حمايتهم من الشر ، وحياطتهم من الظلم ؛ ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق " .

ولن يعلم الطالب المصرى شيئا من هذا وهو يدرس تلك النصوص الجافة الجامدة باسم التربية الوطنية ، وهو لا يدرس شيئا أصلا عن الشعب المصرى والمجتمع المصرى ، وهو لا يعرف شيئا عن طبقات هـذا المجتمع وتوزيع الثروة فيه وآلامه وآماله ، وعلاقة الفرد بالمجموع ، ووسائل الخدمة الاجتماعية ... الى آخر هذه المعلومات التى تشعره أن خلف جدران المدرسة مجتمعا ، والتى تثير فى نفسه حب هذا المجتمع والعطف عليه والتجاوب معه والعمل لخيره ، والتطوع لخدمته .

ثم يجب أن يخلع على كل ما هو مصرى ثوب الإعزاز والإكبار ، وأن يحرم كل ما يخدش الشعور الوطنى أو يوحى بأن هذا الوطن أقل من الأوطان الأخرى فى شىء ما من خصائص الحياة ، وأن يراعى ذلك فى كل ما يقرؤه التلاميذ أو يشاهدونه فى المسرح والسينما أو يسمعونه فى الإذاعة بكل وسائلها .

* * *

هذه أمثلة من وسائل تربية الشعور القومى ، وتوجيه التعليم هذه الوجهة ، وهى أمثلة مجملة قصدنا منها الاشارة السريعة لا رسم خطة مفصلة . وكان حديثنا حتى الآن مقصورا على مراحل التعليم غير العالى أما الدراسات الجامعية والعالية ، فوسائلها الى هذه الغاية أكثر عددا وأوسع مدى . ومتى تم وضع الأساس فى المراحل الأولى ، سهلت إقامة البناء فى المراحل الأخيرة .

وفى اعتقادنا أن التعليم فى المدارس سيبقى بلا هدف ولا ثمرة ، حتى ترسم سياسة إنشائية متحررة من أثقال الماضى ، ثائرة على "لوتين" الديوانى والاجراءات الحكومية .

وفى وجود القائمين على شئون التعليم الآن ما يكفل الثورة والتحرر ، وما يضمن هذا الاتجاه الجديد ، وهو ألزم من النظر فى أشياء أخرى كثيرة تشغلهم عن هذا العمل القومى الباقى للأجيال .

سيد قطب